وصايا متفرقة

* أصحاب التخصصات الطبيعية. * التقصير في العمل بالعلم. * الضعف في جانب التعبد. * عشر وصايا. 45- بماذا تنصحون أصحاب التخصصات الجديدة والنظرية، كالمطبخ والهندسة والحاسب والعلوم البحتة من جهة التزود من العلم الشرعي؟ لا شك أن هذه العلوم لها أهميتها، والحاجة داعية إلى تعلمها، وتعتبر من فروض الكفاية، فلو تركها الناس كلهم أو المواطنون لتضرروا، واستدعى ذلك استئجاب من يعرفها ولو من بعيد، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن من فروض الكفاية تعلم الحرف والأعمال اليدوية، كالسجادة، والخرافة، والبناء، والحجامة، والخياطة ونحوها، وأن للإمام أن يلزم طائفة من الناس إذا احتيج إلى ذلك، حتى يسدوا حاجة المجتمع. ولكن الانكباب على تعلمها من عموم الأفراد، والاشتغال بها يفوت على الإنسان ما هو أهم منها، ومع ذلك من اقتص بأحد هذه العلوم لم يجز له الإغراض عن العلوم الشرعية، مثل علم التوحيد، والعقيدة، والفقه، والتفسير، حيث إن هذه العلوم يكلف كل فرد بالعمل بها ويلزمه أن يكون العمل بها على بصيرة، ويتوقف ذلك على تعلم ما يلزم من ذلك، فيأخذ من أصوله؛ أي من العلماء الربانيين، والكتب الموثوقة، ولا شك أن من تعلم العلوم الآلية يكون على جانب من المعرفة باللغة، والنحو، والصرف، فيسهل عليه الفهم وإدراك المعاني بمجرد القراءة، فله الاقتصار على القراءة من المراجع الموثوقة، ويفضل بحثه مع العلماء وتلقيه عنهم. 46- ما توجيهكم لطلاب الكليات والأقسام الشرعية بعد تخرجهم؟ لا شك أن هؤلاء الخريجين قد حازوا علما نافعاً، وبذلوا وسعهم طوال زمن الطلب، حتى أنهوا هذه المراحل، ومنحوا مؤهلات رفعتهم في أحيان كثيرة، فكانوا غالباً محل التقدير والتقدير، فتوجهي لهم أولاً: الحفاظ على تلك العلوم التي حصلوا عليها وتلقوها وقت الطلب، والتي بذل في سبيل تعلمهم إياها جهدهم، وبذل مشايخهم ومدرسوهم في سبيل تحصيلهم وقتاً طويلاً، واجتهدوا في التعلم والمذاكرة والحفظ، حتى تجاوزوا تلك المراحل، فعليهم مذاكرة ما تعلموه، وتكراره حتى لا يذهب هباءً منثوراً، وعليهم العمل به بقدر الاستطاعة. كما توجههم إلى التزود من العلوم النافعة المفيدة، سواء التوسع في تلك الفنون التي مرت، أو الاشتغال بفنون أخرى لها أهميتها، عن طريق التلقي من العلماء الأكابر، أو القراءة في الكتب الموثوقة، أو سماع الأشرطة الدينية، فإن ذلك من وسائل التوسع في تحصيل العلم المفيد، كما توجههم إلى أن يكونوا قدوة حسنة في الدين، فيعملون ويعلمون، ويظهرون بمظاهر شريفة، يعرف العامة بمكانتهم وفضلهم، ونوصيهم أيضاً ببذل العلم الذي حصلوا عليه، سواء في زمن الدراسة أو بعده ونشره في المجالس، والمساجد، والحلقات، والمناهل، حتى يربح وينبت، وحتى يزيدهم الله منه، ويفتح عليهم علومه، وكذلك نوصيهم بحسن النية، والتواضع لله -تعالى- ولطلاب العلم، ولبن الجانب لهم، وإظهار الفرح والسرور بإقبالهم على الأخذ عنهم، ونحو ذلك مما له فائدة ظاهرة. 47- قد ينال الطالب نصيباً وافراً من العلم، ولكنه يقصر تقصيراً يبين في العمل به، فما نصيحتكم له؟ يجب على من ينال علماً أن يطبقه ويعمل به بحسب قدرته، فإن الحجة قد قامت على من بلغه العلم، فيتأكد عليه أن يعمل به، فإن ثمرة العلم العمل به، وقد قال الله -تعالى- { إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ } أي أن أهل العلم الصحيح يعملون به، ويحملهم على خشية الله، وقد روى الدارمي عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: " لا تعلموا العلم لتمازوا به السفهاء، وتجادلوا به العلماء، ولتصرفوا به وجوه الناس إليكم، وابتغوا بقلوبكم ما عند الله، فإنه يدوم ويبقى، وينفذ ما سواه"، وقال أيضاً: "كونوا بانيع العلم، مصابيح الهدى، أحلاس البيوت، سرج الليل، جدد القلوب، خلقان الثياب، تعرفون في السماء، وتخفون على أهل الأرض"، وروي عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: "تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله". وعن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- قال: "اعلموا ما شئتم بعدما تعلموا، فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا". ثم إن العمل بالعلم سبب لبقائه ودوامه، كما قال بعض العلماء: "العلم يهتك بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل". ولا شك أن الحجة قد قامت على العالم، فتركه للعمل أعظم من ترك الجاهل، ولذلك قيل: وعالم بعلمه لم يعمل معذب من قبل عباد الوثن 48- يلحظ على بعض طلبة العلم -أحياناً- ضعفاً في جوانب التعبد. فما توجيهكم حول ذلك؟ العبادة هي ثمرة العلم وفائده، فمن حصل علماً من العلوم الشرعية طولب بالعمل به وتطبيقه، فنوصي حامل العلم بأن يكون حريصاً على العبادة، وكثرة الأعمال الصالحة، وأن يكون قدوة حسنة في الطاعات، وعمل الصالحات، فإنه موضع احترام، والعامّة يقتدون به في عمل الخيرات، فيكون داعية بأفعاله وأقواله. أما إذا ترك العمل بالعلم فإنه يكون قدوة سيئة للجهال والصلال، ويلحق العيب بأهل العلم، وكثيراً ما يقول العامة: إن طلبة العلم هم من أهل الإهمال والإضاعة، وفعل المنكرات، وترك الصلوات، فعلمهم وبال عليهم، حتى يفصلوا عن الجهل على بعض حملة العلم، وهذا مما يؤسف له، فإن ثمرة العلم العمل به، وإن ترك العمل مما يعاقب الله عليه أشد من عقوبة الجهال. ولعل سبب ترك التعبد والعمل بالعلم سوء النية في التعلم، حيث إن الكثير تعلموا العلم لغرض عاجل، وأمر دنوي، فبعد حصولهم على مقاصدهم قل نصيبهم من العبادة، وكثر انشغالهم باللهو واللعب، وأكبوا على الدنيا، وعظموا شأنها، وكانوا عاراً على أهل العلم، وقد روي عن الحسن -رحمه الله- قال: "من طلب شيئاً من هذا العلم فاراد به ما عند الله يدرك إن شاء الله، ومن أراد به الدنيا، فذاك والله حظه منه"، وقال معاذ بن جبل -رضي الله عنه- "اعلموا ما شئتم بعد أن تعلموا فلن يأجركم الله بالعلم حتى تعملوا". رواه الدارمي وغيره. 49- بم توصون طالب العلم تجاه شيوحه وزملائه؟ طالب العلم يحرض على الأسباب التي ينال بها من العلوم ما ينفعه، ولا شك أن من أكبر الأسباب اختيار المعلم الناصح الصالح الذي يقدر به في علمه وعمله، ومن ظفر به الطالب فعليه أن يحرض على الاستفادة من علومه، وذلك بأن يمتثل ما أرشده إليه، ولا يخالف رأيه وإشارته، ويلتمس رضاه فيما يفعله، ويلين له في الخطاب، ويستعمل الكلمات الرقيقة الشفيقة التي ينسبها للشيخ، ويصغي في استماعها، وعليه احترام شيخه وتوقيره، وإظهار الهيبة له، والبعد عن الأمور التي تزيىر بالباطل، أو تكون محل انتقاد شيخه، ويتبعد عن الإزكار على شيخه بنسبه، بل متى أخطأ الشيخ التمس له العذر، وحاول الاستفهام حتى يفظن الأستاذ للخطأ يرجع عنه، وعليه أن يعترف لشيخه بالفضل والإفادة فيما تلقى عنه، وينسب إليه ما استفاده من المسائل على حد قول الشاعر: إذا أفادك إنسان بفائدة من العلوم فلازم شكره أبداً وقل فلان جزاه الله نافله أفادنيها وألق الكبر والحسداً أما سلوكه مع زملائه، فإن عليه أن يختار مجالسة أهل الفهم والذكاء والمعرفة؛ لكي يستفيد من معلومات، فإن الكثير من الزملاء قد يحفظون العلوم والفوائد، فعلى من جالسهم أن يبحث معهم، ويطلب منهم الجواب عما أشكل عليه، ويعترف أيضاً بما تلقاه عنهم من الفوائد، ويجالس منهم من يعينه على المذاكرة وحفظ الوقت. 50- هل من وصية أخيرة توصون لها طالب العلم؟ نوصيه أولاً وأخيراً بتقوى الله -تعالى- فإنها وصية الله للأولين والآخرين، وحقيقتها الخوف من الله -تعالى- ومراقبته في السر والعلن، وفسر ابن مسعود تقوى الله حق تقاته بأن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. ونوصيه (ثانياً) بالتواضع لله -تعالى- ولعباد الله، فإن من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله وضعه، وحقيقة التواضع أن يصغر نفسه، وأن يحتقر نفسه، ولا يرى أنه أرفع من فلان وفلان، ولا يشمخ بأنفه، ولا يعجب بعلمه وربيبته، ولا يذل نفسه بتعظيم أهل الدنيا، والتواضع لهم لأجل دنياهم، بل يصونه عن ابتدائه وإمتهانه، حتى يبرزه الله -تعالى- الهيبة في قلوب الناس. ونوصيه (ثالثاً) أن يترفع عن مجالس اللهو، واللعب، والقيل، والقال، والخوض في الباطل، كما قال -تعالى- { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ } وكما مدح الله المؤمنين بقوله: { وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا }؛ وذلك لأن مجالسة السفهاء، والخوض معهم إقرار لهم على المعاصي والباطل، فمن استطاع أن ينصحبهم ويرشددهم إلى الخير فعل ذلك، وله أجر كبير، ومن عرف أنهم لا يقبلون منه صدق عنهم، وابتعد عن مجالستهم لينجو بنفسه. ونوصيه (رابعاً) أن يعز نفسه من مزاحمة أهل الدنيا في دنياهم، سيما أهل الحرف الدينية والمكاسب المشتهية التي توقع في الحرام أو تدني منه، فإن ذلك مما يبري بالعلم وأهله، وقد ورد النهي عن تعاطي كل حرفة أو صنعة رديئة يتحقر صاحبها في أوقام العامة، كعن الضرورة والحاجة تباح لأجل التعفف، والبعد عن الحاجة إلى الناس، وعن بذل العلم لأجل الدنيا. ونوصيه (خامساً) أن يحافظ على الطاعات والعبادات، وأن يواظب على جميع الواجبات، كأداء الصلاة جماعة، والمسابقة إلى المساجد، والإكثار من الأعمال الصالحة كالقراءة، والذكر، والدعاء، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والنصيحة للأمة، والبر، والصلة، وحسن الجوار، وبذل السلام، ومواساة ذوي الحاجات، والمساعدة إلى الخيرات، ونوافل القربات من التهجد، وصوم التطوع، والحج والعمرة، والنفقة في سبيل الله، وعاهد الصدقة، وأذكر الصباح والمساء، وكثرة ذكر الله في كل الحالات، والصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- عند ذكره، وإظهار محبته، وتعظيم سنته، واحترام أقواله وأفعاله، ونحو ذلك مما هو من سمات المؤمنين، وأهل العلم أولى بذلك. ونوصيه (سادساً) أن يحرض على التخلق بالفضائل، ومكارم الأخلاق، فينبسط للأمة، ويلفاهم بوجه طلق، وببذل ما يقدر عليه من النفع لهم كطعام الجائع، وكسوة العاري، وفك العاني، وقضاء الحاجات، والسعي في مساعدة الجارين، وبذل الجاه في نفع المسلمين على حد قول الشاعر: فرض الإله زكاة ما ملك يدك وزكاة جاهي أن أعين وأشعل ويستعمل مع ذلك التلطف ولين الكلام عند الإرشاد وإيثار المنكر، كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- مع الأعرابي الذي بال في المسجد، وكما عفا عن الآخر الذي سل سيفه وقال: من أنتك مني؟ قال (الله) ولم يعاقبه، ولا شك أن هذه الأخلاق الرقيقة تنشر له سمعة حسنة، ويقولها بين الناس. ونوصيه (سابعاً) أن يتحلى بالفضائل، ويتحلى عن الرذائل، فيتبعد عن الحسد، والبغى، والظلم، والعدوان، وعن الرياء والإعجاب بنفسه، واحتقار غيره، وعن التكبر، والأشر، والبطر، والفخر، والخيلاء، والمباهاة بالمنصب، وحب المدح، واحتقار من هم مثله، والاشتغال بدم الناس، وتتبع عيوبهم، والمنافسة على الدنيا وحظوظها، وتتبع عنترت العلماء للإزراء بهم، وتنقص علوم غيره ليعرف الناس إليه، فقد ابتلى الكثير من العلماء بالمنافسة والحسد كما قال الشاعر: ينسى من المعروف طوداً شامخاً وليس ينسى ذرة ممن أسا وقد كثر الحسد وفشا بين مدعي العلم، وإنشغل الكثير بعبود غيره وتكبيره، فيجعل من الحية قبة، ويجسد الزلزلة الصغيرة، ويجعل الرجح مع غيره مرجوحاً، ولا شك أن هذا اعتراض على الله -تعالى- في تصرفه، فهو سبحانه يعز من يشاء وبذل من يشاء، ويرفع بعضاً، ويخفض آخرين، { ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } وعلى العالم أن يعترف بما فضله الله به، ويعلم أن ذلك محض فضل من الله وجوده منه، فيشكر ربه ويعبده ويحمله، ويعترف بفضل الآخرين وما جباهم الله من العلم والخلم، ولا يعترض على ربه في عطائه وفضله. ونوصيه (ثامناً) باستعمال الأخلاق المرضية عند الله -تعالى- كالتوبة، والإنابة والرغبة، والرغبة، والخشوع، والخشية، وإخلاص العمل لله -تعالى- والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والرضى عن الله -تعالى- بما قسمه، والاستعداد للرحيل، والقناعة بالقليل، والخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والتوكل على الله -تعالى- وتفويض الأمور إليه، والرضى به حسيباً ووكيلاً، والشفقة والرحمة بالخلق وإيثار رضى الله -تعالى- على كل أحد، ومحبة الله -تعالى- ومحبة من يحبه الله، وبعض أعداء الله، وهجرهم في ذات الله، ولو كانوا أقرب قريب. ونوصيه (تاسعاً) بحفظ الوقت واستغلاله فيما يعود عليه الفائدة، واستغلاله في التزود من العلم والعمل، فإن العلم كثير، والعمر قصير، ومما يذكر عن الشافعي -رحمه الله- أنه قال في وصف العلم وطلبه العلم: "العلم بطيء الزام، بعيد المرام، لا يدرك بالسهام، ولا يرى في المنام، لا يورث أن الأبناء والأعمام، إنما هو شجرة لا تصلح إلا للغرس، أنه لا يسترش إلا في النفس، ولا تستقى إلا بالدرس، ولا محصل إلا لمن أُنق العيين، وجنا على الركبطين، ولا يحصل إلا بالاستناد إلى الحجر، واقتراش المرد، وقلة النوم، وصله الليل باليوم، انظر إلى من شغل نهاره بالجمع، وليله بالجماع، أخرج من ذلك فقيها؟ كلا والله حتى يعتصد الدفاتر، ويستحصل المحابر، ويقطع القفار، ولا يفصل في الليل والنهار". اهـ. ومما روي عنه أنه قال: "حق على طلبة العلم بلوغ غايته جهدهم في الاستكثار من علمه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله -تعالى- في إدراك علمه ناصاً واستنباطاً، والرغبة إلى الله -تعالى- في العون عليه". اهـ. ثم يقول: ليس له أن يجهد نفسه ويتعبها مخافة الملل والضجر، فقد روى ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: { كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يتخولنا بالموعظة مخافة السامة علينا؛ فله أن يريح نفسه وقت الأكل، والشرب والنوم، والاستراحة بعد التعب، وعليه أن يقوم بما عليه من حق زوجة أو ولد، أو زائر، أو سعي في طلب معاش، ويجعل بقية وقته في التعلم والعمل، فإنه لا ينال العلم براهة الجسم. ونوصيه (عاشراً) أن لا يستشك في أخذ العلم عن غيره، ولو من صبي أو عالمي، أو شريف، أو طريف، فإن الحكمة ضالة المؤمن، يلتقطها أين كانت، فالفاضل يستفيد من الفضول ما ليس عنده، فقد روى كثير من الصحابة عن بعض التابعين، ونقل عن سعيد بن جبير -رحمه الله تعالى- أنه قال: " لا يزال الرجل عالماً ما تعلم، فإذا ترك التعلم وطن أنه قد استغنى واكتفى بما عنده فهو أجهل ما يكون". وكان أبو حنيفة يجلس بين يدي مالك كالصبي، مع أنه أكبر منه سناً، وكان الشافعي يقول للإمام أحمد " أنتم أعلم مني بالحديث، فإذا صح عندكم الحديث فقولوا لنا حتى تأخذ به"، مع أن الشافعي أكبر وأشهر أهل زمانه. وبعد هذه بعض الوصايا لعل الطالب الصادق أن يمثل بها، ويسير على صورتها، رجاء أن يكون ذلك سبباً في تفوقه وتبله من العلم ما ينفعه، وينفع غيره. ونسال الله -تعالى- أن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيقنا علماً نافعاً، وعملاً صالحاً ونعوذ به من علم لا ينفع، ومن عمل لا يرفع، والله -تعالى- أعلم وأحكم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم. عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين